المصـــــدر : الحياة
التـــاريخ : 17-02-2006 العـــدد : 15659
الصفحـات : 17 المسلسل : 124

"حماس" والحاجة إلى الانتقال من "ثقافة التحرير" إلى "ثقافة السلطة"

المصـــــدر : الحياة
التـــاريخ : 17-02-2006 العـــدد : 15659
الصفحـات : 17 المسلسل : 124

توفيق المديني *

في ربيع عام ٢٠٠٤، اعتقدت حكومة أرييل شارون أنها وجهت ضربة غاية في القوة والقسوة إلى «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس) باغتيال زعيمها الروحي للحركة الشيخ أحمد ياسين في ٢٢ آذار (مارس)، والقائد البارز في الحركة الدكتور عبدالعزيز الرنتيسي في ٢٢ نيسان (أبريل). يومها ساد الاعتقادد في الدولة العبرية أنها تخلصت من ألد أعدائها، وأقصت «حماس» من المشهد السياسي الفلسطيني بصورة دائمة. بيد أن ذلك لم يحصل. فبعد بضعة شهور من التردد، تمكنت الحركة من اعادة تموقعها في مركز المسرح السياسي الفلسطيني.

كانت ولادة حركة «حماس» في زمن عصيب جداً. ففي وقت كانت المقاومة الفلسطينية التي كانت حركة «فتح» بزعامة الرئيس الراحل ياسر عرفات تمثل عمودها الفقري قد انسحبت من بيروت في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٨٢، مذلولة وغارقة في إحباط ويأس، وتفرقت شرازم في عواصم عربية متباعدة تبدأ بعدن وتنتهي بتونس مروراً بدمشق وطرابلس الغرب، ولدت حركة «حماس» في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧، مع بداية الإنتفاضة الفلسطينية الأولى، من رحم جماعة «الإخوان» الفلسطينيين المرتبطين بـ«الإخوان» الأردنيين، والذين كانوا ينشطون في مناطق عام ١٩٤٨ والضفة الغربية وقطاع غزة.

وكانت تجربة الحركة الإسلامية في قطاع غزة خلال عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي مميزة نتيجة عوامل داخلية وخارجية مختلفة. أهم العوامل الداخلية البنية الاجتماعية التقليدية للقطاع التي تجد لها تعبيرات في سيطرة العلاقات العشائرية والقبلية، إضافة إلى نمط الثقافة والأفكار المحافظة السائدة في أوساط سكانه، والضعف الذي كان يحيط بالقوى الوطنية والديموقراطية والذي غالبا ما يترافق مع اتساع نفوذ الحركة الإسلامية و تنظيماتها. أما أبرز العوامل الخارجية، فكان في مقدمها أنشطة «الإخوان المسلمين» المصريين، وموقف الحكومة المصرية المتسامح تجاه نشاط الإسلاميين الفلسطينيين.

وجسد تأسيس «حماس» القطيعة

المصـــدر : الحياة
التـــاريخ : 17-02-2006
الصفحـات : 17
العـــدد : 15659
المسلسل : 124

مع السياسة السابقة لـ«الإخوان المسلمين» الذين كانوا يتحاشون المقاومة النشطة ضد الكيان الصهيوني في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين منذ عام ١٩٦٧، ويفضلون إعادة الأسلمة للمجتمع. وتشكل الجناح العسكري للحركة، «كتائب عزالدين القسام» عام ١٩٨٩. وبانخراطها في العمل المسلح، سارت «حماس» على خطى «حركة الجهاد الإسلامي» التي أسسها الدكتور فتحي الشقاقي، وهو ناصري سابق تحول إلى «الإخوان» عقب هزيمة ١٩٦٧، وكشف عن وجودها نهاية عام ١٩٨٧ في قطاع غزة، عندما شن أعضاء منها مجموعة عمليات عسكرية ساهمت في ترتيب الأجواء الشعبية للإنتفاضة.

وبالنسبة الى «الإخوان المسلمين» المصريين، تقود أسلمة المجتمع إلى تحرير فلسطين، اما بالنسبة الى «الجهاد الإسلامي» فيعتبر التحرير أولوية قبل أسلمة المجتمع. لذا مزجت «حماس» بين المقاربتين. وإذا كانت «الجهاد» تأثرت بالثورة الإسلامية الإيرانية، فإن «حماس» لم تكن منفصلة عن عملية التجذير للشعب الفلسطيني في مواجهة الإحتلال الصهيوني منذ عقد الثمانينات من القرن الماضي، وبأنها صعودها في إطار صعود الإسلام السياسي الذي ساد في العالم العربي بعد هزيمة الحركة القومية العربية وتراجع اليسار العلماني. لكن «حماس» تظل قبل كل شيء حركة وطنية دينية تعطي أولوية للمسألة الوطنية الفلسطينية، وهذا ما يجعلها مرفوضة في نظر الجهاديين السلفيين.

وفي الواقع، كان الإسلام بالنسبة إلى «حماس» أداة تعبئة استعداداً لحرب تحرير وطني أكثر منه أيديولوجية سياسية. فليس الإسلام وسيلة للشرعنة (لأنّ شرعيّة النضال من أجل التحرير ليست محل شكّ من «حد) بل إنّه علامة فارقة عن منظمة التحرير الفلسطينية عموما، وحركة «فتح» (حزب السلطة) خصوصا، التي امسكت مقاليد الأمور منذ وقعت عام ١٩٩٣ إتفاقات أوسلو التي لا تعترف بحق الفلسطينيين في إقامة دولة ذات سيادة، ولا تنص على تجميد الاستيطان أو الإنسحاب الكامل من الضفة الغربية و قطاع غزة، بل تقود من وجهة نظر الراديكاليين الفلسطينيين إلى تكريس حكم ذاتي فلسطيني هزيل، وهذا يتناقض مع ميثاق منظمة التحرير وطموحات الشعب الفلسطيني في الإستقلال. والإسلام هو أيضاً تقنية لتعبئة المدنيين. لكنّ الفارق مع الحركات الإسلامية الأخرى هو انّ «حماس» تبقى في وضعية المعارضة المطلقة. فهي لا ترى في غزّة نواة الدولة الفلسطينية بل قاعدة للقتال. وهذا ما جعل الكيان

المصـــــدر : الحياة
التـــاريخ : 17-02-2006 العـــدد : 15659
الصفحـات : 17 المسلسل : 124

الصهيوني ينتهج نهجا غاية في العداء إزاء الحركة.

وعلى رغم أن «حماس» هُمِّشت من قبل أوسلو، وحُوربت من قبل الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة، إلا أنها استفادت من مجموعة من الأخطاء الإسرائيلية والفلسطينية. فقد قادت محاولة الإغتيال الفاشلة لخالد مشعل في الأردن إلى إطلاق الزعيم الروحي للحركة من السجون الصهيونية عام ١٩٩٧. إضافة إلى إن الركض وراء سراب السلام من جانب السلطة لم يقد إلى بناء الدولة المستقلة، على رغم كل التنازلات التي قدمتها وقمعها للمعارضة الفلسطينية، خصوصا حركتي «حماس» و «الجهاد» في السنوات العشر الأخيرة.

فضلا عن ذلك فإن وصول المفاوضات بين ياسر عرفات وايهود باراك بإشراف الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون إلى طريق مسدود، والزيارة الإستفزازية لأرييل شارون إلى باحة المسجد الأقصى في أيلول ٢٠٠٠ و إنطلاقة الإنتفاضة الفلسطينية الثانية، و تداعيات أحداث ١١ أيلول إقليميا ودوليا، وصعود شارون إلى السلطة في اسرائيل ما أطلق رصاصة الرحمة على إتفاقات أوسلو، وتبني الرئيس جورج بوش أطروحات شارون لجهة التخلص من عرفات وتصفية المقاومة الفلسطينية وانتهاج شارون سياسة الاغتيالات، كل هذه العوامل ادت إلى تعزيز شعبية «حماس» بوصفها القوة الأولى المستهدفة من قبل الكيان الصهيوني، وإلى تحويل الانتفاضة الى عمل مسلح.

ويرى محللون أن تفاقم أزمة السلطة الفلسطينية في ضوء الفساد والإفساد الذي شاه فيه رموز السلطة بعدما توافدت أموال الخارج ببلايين الدولارات، وتعرض «فتح» بوصفها حركة فضفاضة وغير مؤطرة باطر حزبية وتنظيمية دقيقة وصارمة إلى إنقسامات كبيرة شكلت تهديدا جدياً لوحدتها الداخلية، لا سيما بعد رحيل «أبو عمار» في ذروة انهيار السلطة، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت الشعب الفلسطيني يعاقب «فتح» إنتخابيا.

كما إن الأزمة الاقتصادية الفلسطينية الناجمة عن الحصار الاقتصادي الذي فرضته حكومة شارون، جعلت الشعب الفلسطيني يتجه نحو شبكة الجمعيات الأهلية التي تتمتع بفاعلية كبيرة.

وهنا لعبت البرامج الاجتماعية لحركة «حماس» دورها أيضا، إذ إن تشكيلة الخدمات الاجتماعية والخيرية التي تقدمها الحركة تمثل تناقضا صارخا مع تداعي وزارات السلطة وانعدام فعاليتها، ففي وقت ادرك الفلسطينيون «حجم الفساد المتشعش في دوائر السلطة» كانت «حماس» تعرض نفسها كبديل «نظيف اليد» يعكف على تقديم المساعدات للفقراء والمعوزين والمحتاجين. ومن حركة معارضة للسلطة وسياستها نجحت «حماس» في عرض نفسها كبديل سياسي واجتماعي وعسكري وايديولوجي للنظام الفلسطيني الحالي.

هناك إجماع عربي و إسلامي على أن وصول «حماس» إلى السلطة سيجعلها تواجه تحديات كبيرة. فهل تستمر الحركة في تبني استراتيجية سياسية وعسكرية يحدّدها في شكل كامل النضال من أجل تحرير فلسطين، مع ما يقتضي ذلك من المحافظة على سلاحها الذي ينتمي عملياً إلى المرحلة التي كانت فيها في صف المعارضة، أم أنها، بحكم براغماتيتها السياسية، ستستبدل النضال المسلح برؤية سياسية، وتتحوّل من ثقافة الحرب الى ثقافة السلطة والإهتمام بالإدارة الملموسة لها؟

من السابق لأوانه إعطاء جواب قطعي عن هذا التساؤل، إذ ليس من السهولة بمكان أن تتخلى «حماس» عن استراتيجية المقاومة وعن ثقافة القتال التي تعتنقها بمجرد تسلّمها زمام السلطة فجأة. وهو وضع تقليدي بالنسبة إلى حركات التحرير الوطني، وإن كان الوضع الفلسطيني يتميز بتعقيداته الخاصة نظرا الى وجود استعمار استيطاني على أرض فلسطين، فضلا عن ان الدولة الفلسطينية التي يمكن قبولها غير موجودة.

من المؤكد أنّ «حماس» ستحاول التأكيد على التزامها تحرير فلسطين تحريراً كاملاً، وإدارة السلطة عبر تبنيها مشروع السلام العربي الذي طرحه خادم الحرمين الشريفين عبدالله بن عبدالعزيز كمخرج للضغوطات التي بدأت تمارس عليها دولياً، لا سيما من جانب الدول المانحة للسلطة الفلسطينية.

---

* كاتب تونسي